

## ويسألونك عن القاهرة

قل القاهرة بفراد الأوس رب باريس اليوم

للككتور زكى مبارك

أكتب هذه الرسالة وقد هربت من ضجيج القاهرة في مساء العيد . وهل في شوارع القاهرة في مثل هذا المساء موضع قدم لمن يريد أن يزود قلبه وعينه بما في أعياد للقاهرة من مواكب السحر وملاعب الفتون ؟

هي دنيا من الفرائب والأعاجيب تسمد بها قلوب ، وتشقى بها قلوب . وهل يعرف حلاوة السعادة أو مرارة الشقاء غير قلب تنطوى عليه أحشاء القاهرة في يوم عيد ؟

يقال في كل أرض : إن للنكتة المصرية هي أروع ما عرف الناس من صور الفكاهة . وهذا حق ...

ولكن هل فكر أحد في أسباب هذه الخصوصية ؟ إن النكتة هي النافذة التي نشرف منها على مروج الطرب والابتسام . ولو خلت حياتنا من النكتة لقتلنا القَيْظُ على الأيام الجواثر التي لا يلتئم بها شمل ولا يمتدل ميزان

ولعل المقادير لو نمت للقاهرة هذا التلونين المجيب لتعطب قلوبنا الدامية ، القلوب التي حرقها الهيام بالحب والمجد فلم تعرف معنى الفرار في صباح أو مساء

قلت لقلبي : أياكون فرارك من ملاعب القاهرة في مساء العيد دليلاً على أنك تشبه الطفل الذي يزهد في اللب ؟ فقال : وما حكم الطفل الذي يزهد في اللب ؟

فقلت : يزرع عليه الأهل ، ويستقدمون له الطيب ، لأن الطفل لا يزهد في اللب إلا وهو عليل

فقال : وأين أهل القلب للليل ليترجموا عليه ويستقدموا له الطيب ... ؟ وعندئذ عرفت أن قلبي يمشي في الدنيا بلا أهل !

\*\*\*

هنا القاهرة !

نعم ، هنا القاهرة . ولكن أين تقع القاهرة مما يريد القلب النطور ؟ أين وهي أصل الملة التي ردت الفؤاد وهو سديع ؟

كانت القاهرة في ماضيها مدينة محدودة النطاق . وكان لها أسوار وأبواب . وكان حراسها يطوفون أرجاءها في ساعة

أو ساعتين ثم يصعد رئيسهم فوق منارة ويصبح :

« ناموا ، أيها المسلمون ، فأنتم في أمان »

فأين نحن من ذلك الأمان وقد جدت في دنيانا معاطب غير عدوان اللصوص على المتاجر والبيوت ؟

يستطيع كل قاهرى أن يطمئن إلى أن منزله أو متجره في أمان من سطوات الليل ؛ ولكن أين الأمان من عدوان الشياطين ، شياطين الفرائز والنحائر والطباع ؟

من يضمن لك الأمان في مدينة مثل القاهرة وهي لليوم مسببة عقلية تصارع فيها المذاهب والآراء ، ولا يغمض فيها جفن إلا وهو مسرّوع بقلب ساهر لا يعرف السكون إلا يوم تمن عليه المقادير بالموت ؟

من يضمن لك الأمان في مدينة مثل القاهرة وأنت من نفسك في حرب ، ومن الزمان في قتال ، ومن الزملاء في نضال ؟

يجب أن تعرف أنك في دنيا جديدة لا يسلم من خطوبها وصروفها غير من أمده المقادير بالصبر عما في القاهرة من اصطراع العواطف واصطخاب الأهواء

فهل أنت من الصابرين ؟ وكيف تصبر عن القاهرة ، وهي قاهرة وفي دمك وروحك أقباس من سمرها المصوف ؟

ألم تسمع ما وقع يوم أقيمت مباراة الأناشيد العسكرية ؟ تلقت اللجنة خمسمائة نشيد ولم تختار غير خمسة أناشيد . فقال

القائلون : هذا شاهد جديد على أن دولة الشعر يكثر فيها الأديباء ! وكان ذلك لأننا نعيش في القاهرة مدينة الأناقة والنفخامة

والزخرف والبريق ، وفي مثل القاهرة تُقهر العواطف وتُظلم القلوب . وإلا فكيف جاز أن ينسى الحكمون ما في تلك الثروة

الشمرية أو النظمية من الدلالة على حرارة الأئدة وشهامة العقول ؟ خمسمائة نشيد ؟ معنى ذلك ، أيها الناس ، أن القاهرة فيها

خمسمائة قلب ، وذلك مغمم عظيم . ولكن أين من يقيم الميزان لحيوات القلوب وهي لا تُوزن ولا تقاس ولا تكال ؟

وهل يشقى في المدائن المظيمة غير أصحاب القلوب ؟

\*\*\*

هنا القاهرة !

نعم ، هنا القاهرة ، ولكن أين مكان الأديب في المدينة التي أصبحت عاصمة الشرق ؟ أين مكان الأديب في القاهرة

وبفضل قلم الأديب سارت القاهرة عاصمة الشرق ؟ وهل خُلدت ليلى إلا بفضل أشعار قيس ؟

للاشتراك في المؤتمر الطبي العرب ، وحمدوا الله على أن جعل للمروية مدينة مثل القاهرة تتكلم اللغة العربية . فإن لم تكن القاهرة أعظم مدينة في العالم كله فهي بالتأ كيد أعظم مدينة في الشرق بفضل ما جمعت من الخصائص الدانية التي تحم لها بالفضل على جميع مدن الشرق ، وليس ذلك بالقليل

ولكن أين من يعرف أننا بسبب هذه العظمة أشقياء ؟ أين من يعرف أن القاهرة لا تعظم من يوم إلى يوم إلا لتزيد أعباءنا في الحياة ؟ وإلى المنصفين من إخواننا في الشرق أقدم القاهرة الآتية ليعرفوا في أي جحيم يعيش القاهريون في كل بلد من بلاد الشرق يستطيع الرجل الوسط أن يعيش لأن الدنيا في بلاد الشرق لا تزال تنسع للأوساط من الرجال أما مصر - ورحم الله أهل مصر - فليس فيها للرجل الوسط مكان

العالم الوسط لا يستطيع العيش  
والأديب الوسط لا يجد الرزق  
والفني الوسط يضيع

والطبيب الوسط لا يجد ثمن الدواء حين يمرض  
والصحفي الوسط لا يملك الوصول إلى خبر صغير  
والممثل الوسط قد لا يجد الفرصة لشهود رواية صغيرة ،  
فضلاً عن القدرة على الاشتراك في التمثيل  
القاهرة تقول في كل وقت : كمن قاهرياً  
وهل يستطيع كل مصري أن يكون قاهرياً ؟  
أليست القاهرة هي التي فرضت التحول على مئات من الشعراء  
لأنهم لم يكونوا في عبقرية شوقي وحافظ وصبري ومطران ؟  
أليست القاهرة هي التي فرضت التحول على مئات من الكتاب  
لأنهم لم يكونوا في عظمة محمد عبده وعلي يوسف وعبد العزيز  
جاويش ومصطفى المنفلوطي ومحمد المويلحي ؟

ومن كتاب اليوم وشعراء اليوم ؟  
عندنا مئات من الكتاب والشعراء ، ولكنهم سيموتون  
بغصة الحسرة على أن نشأوا في القاهرة لهذا العهد ، عهد الزحام  
المنيف الذي لا يسلم من كربه غير الفحول الصوالين  
لقد قيل إن الرحمة فوق العدل . فأين نحن من الرحمة وأين  
نحن من العدل ؟ أين من يرحم الأديب الوسط أو يمدد في الحكم  
على الأديب الوسط فيقضي بأن من جقه أن يعيش لأنه قد يكون  
أقدر من بعض الذين خلدتهم أبو الفرج الأصفهاني ؟

أين مكان الأديب في القاهرة ، ومن دم قلبه حُطَّ تاريخها الحديث ؟ بل أين من تسمح له القاهرة بأن يقول إنه في هواها مجنون ؟  
إني وإياها كفتن بالدار تحرقه ويبدها  
هنا - في القاهرة - زاد المقول والقلوب والمواطن  
والأحاسيس ، فأين مكان الأديب يا القاهرة ليؤدى ما أذاه عشاق  
بنداد في القديم وعشاق باريس في الحديث ؟

زرت حديقة الأزبكية في صباح اليوم وهو يوم عيد فلم أر  
فيها غير سرازم من غلف القلوب ، فأين الأديب الذي يُشعر  
الدنيا بأن في القاهرة حديقة اسمها حديقة الأزبكية ؟ وكيف جاز  
أن تخلو هذه الحديقة في يوم العيد من مواكب الحُسن الوضاح ،  
والجمال الفضاح ؟ ومتى نعيش إذا ألمانا جُدَّ القاهرة عن مداعبة  
الملاح في يوم العيد ؟

متى نعيش إذا استطاعت مُحرجات الحياة أن تقهرنا على  
التفكير في منافقتنا الدنيوية في المواسم والأعياد ؟ وهل عمرنا عمر  
نوح حتى نصبر عن مواسم الأفتدة إلى أجل قريب أو بعيد ؟  
هي أيام نقضيها بشدودين بسلاسل وأغلال إلى « قطار  
المفاجآت » في هذه الحياة . فمتى نلثقت إلى ما أنبت النيث  
في صحراء الحياة من أزهار ورياحين ؟

سيندم قوم على ما ضيعوا من مواسم القلوب في القاهرة .  
وسأذكر بعد فوات الوقت أنني جنيت على شبابي حين أضمته  
بين سواد المداد وبياض القرطاس في زمن لا ينفع فيه غير الأبحار  
بالتراب . فهل أخرج من داري إلى معاينة الحياة بالقاهرة في هذا  
المساء ؟ وكيف ولي شواغل محرمي الحرية في مساء العيد ؟  
وهل يستطيع قاهري أن يمضي يوماً واحداً بلا كفاح  
وهو يعيش في مدينة مقدودة من سخور الصبر على مصالوة الحياة  
إن هذه المدينة التي تفتنكم لم تُخلق في يوم وليلة ، وإنما هي  
عصارة النزائم الشداد في الأجيال الطوال . فن أقم في القاهرة  
وله عقل وذوق فليحاسب نفسه على اللحاح واللحظات ليؤدى  
الزكاة عن قلبه وعقله وذوقه إن كان من الموفقين ، وإلا فهو  
نفاية ملفوظة في المدينة « القاهرة » التي تنكر نخود الثرائر  
وجود الأحاسيس

\*\*\*

هنا القاهرة ا  
إي ، والله ، هنا القاهرة . وما أسعد من يرى القاهرة  
أول مرة ا  
لقد فتنت هذه « القاهرة » من زاروها في هذه الأيام

على النضال المميت ليجد مجالاً في المدينة التي تصطرح فيها أقلام المازني والمعقاد والزيات والبشرى وهيكل وطه حسين ، ومن إليهم من الباحثين الذين سيموتون قبل الأوان بفضل الكفاح الموصول ؟ القاهرة لا تعرف الرجل الوسط ، فافهموا هذه الحقيقة يا أبناء هذا الزمان ، وإلا فهناك « سلة المهملات » تنتظر الألوف ممن يرسلون الجرائد والمجلات ؟

يعن علينا من يحمله التلطف على القول بأن القاهرة عاصمة الشرق . فهل تعرف القاهرة أن أقالمتنا هي التي صاغت لها تلك المقود من الشناء ؟ وكيف وعندها (سفع المقطم) الذي وسع الألوف من أجسام للعقبين ؟

زرت سفع المقطم منذ أعوام لأستوحى روح ابن الفارض قبل أن أشرع في كتابة الفصل الخاص به في كتاب النصوص الإسلامي ، فراعني أن أعرف أن تلك الناحية هي أنفع مكان في القاهرة من الوجهة الصحية . وكذلك أيقنت أن القاهرة تدخر أجمل بقاعها للأموات . وما أحسبها تصنع ذلك وفاة ، وإنما أخشى أن تكون أرادت التنبيه إلى أن عظمة الرجل في مصر لا تكون إلا بعد الموت !

رحمك الله أيها القلب الذي يشغله الكفاح عن ملاهي العيد ! الآن ، وقد انتصف الليل أو كاد ، أفكر في مصريين قومي

أفكر في الشباب المضيّع بلاهو ولا فتون !

وهل كنت أول من ندم على الشباب المحروم !

ولكن ، هل أملك غير الذي صنعت وغير الذي سأصنع ؟ فيا أيها الوطن الغالي ، تذكرهم تذكر . تذكر أنني كنت ولا أزال مجنون ليلك ! فإن رأيتني سدت عن أفرحك في يوم عيد ، فأعرف أن ذلك لم يقع عن جهل أو عقوق ، وإنما هي إرادتك المالية التي قضت بأن يميش أبناؤك وهم دائماً في حومة قتال !

وما أدعوك ، أيها الوطن ، إلى التصديق على نظرة عطف ، فأنا لا أقبل الصدقات ، وإنما أدعوك إلى مقابلة الجليل بالجميل ، فإن رفق الآباء يزيد في ير الأبناء !

وطني ! لقد شقيت بمظلمتك ، ومن أجل هذا أحبك وأستعذب الصاب والملمق في هواك !

وطني ! إليك أسلمت قلبي وعقلي ، فخذ بزمامي إلى حيث تشاء ، يا أنضر دوحة تنمت فوقها البلابل ، ويا أجمل روضة رنت فيها القبلات ، ويا أظهر بقعة أقيمت فيها المحاريب ، ويا أشرف صحيفة ارهفت آذانها الواعية لصرير القلم البليغ . زكي مبارك

وأين الزاحم أو العادل الذي يقول بأن في شعراء اليوم ، الشعراء الذين أخلتهم القاهرة ، من يفوق عشرات من شعراء « النيمة » و « الدخيرة » و « قلائد المقيان » ؟

القاهرة لا تتسع أبداً لغير الأفتاذ الذين يظليون الزمان

وهنا جواب السؤال الذي يوجه إلي في كل يوم :

« كيف يتسع وقتك لكل ما يصدُر عن قلمك من الدراسات الأدبية والفلسفية ؟ »

وهل عندي وقت وأنا موظف مسئول أمام الواجب ؟

إنما أنا قاهريٌّ يجبس نفسه في البيت يوم التمدد ليحفر بسنان القلم ثقباً يتطلع منه على ضوء المظلمة القاهرية عشاءً يقع القاهرة بأنه رجل مجاهد يستحق أن يعيش

فإن رأيتم قاهرياً يصنع مثل الذي أصنع فأعرفوا أنه رجل مكثود يحاول الظفر بكلمة تناء من المدينة العاتية التي حكمت بالألوف يميش فيها غير من يقدر على أمواج المحيط في غضبة العواصف الهوج ، ودهرنا كله عواصف هوج بتفرزع من هولها المحيط

لا تصدقوا أبداً أننا نسي في سنبل الجدد ، فذلك مطلب لا يخطر لنا في بال ، وإنما نسي للخلاص من شماتة الشامتين وسفاهة الكائدين

آه ثم آه ! !

لو كان الماضي ينفع لجاز لرجل مثل أن يعتمد على ماضيه في خدمة الحياة الأدبية والفلسفية ، ولكن القاهرة تمبس في وجه الرجل الذي يعتمد على ماضيه ، لأن ذاكرتها تضيق عن مراجعة الأسماء ، أسماء المجاهدين الذين عطروا باسمها أرجاء الشرق . هي حسناء لمحب لا تعرف غير العاشق الزوّد بأطياب التروة والمافية . فيارب كيف أكون في وطني يوم يتم قلبي فأنصرف عن الخلوّة إليه في يوم عيد ؟ حتى يوم العيد نقضيه في نضال ؟

في مثل هذا العيد من سنة ١٩٣٢ كذبت على أبي مرة ، ولم أكذب عليه غير تلك المرة . كتبت إليه أقول إنني سأقضي أيام العيد في الإسكندرية فلا ينزعج أهلي إن حرمتني هذه الزهرة من الأنس بهم يوم العيد في سنتريس

فهل قضيت تلك الأيام في الإسكندرية ؟

لم تكن إلا حيلة لأحبس نفسي أيام العيد في البيت لأكتب فصلاً من فصول « النثر الفني » وهو الفصل الخاص بتطور السجع في اللغة العربية

وهل يصنع بنفسه هذا الصنيع إلا قاهريٌّ تفهده القاهرة